جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

شعبة التاريخ

تاريخ شرق إفريقيا قبل القرن السابع الميلادي

محاضرات موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء

تقديم الدكتور سليماني يوسف

الموسم الجامعي 2020/ 2021

المحور الأول: جغرافية المنطقة وأصل السكان:

أولا: جغرافية منطقة شرق إفريقيا

تتناول الدراسة في منطقة شرق إفريقيا المنطقة التي تمتد من الحدود الشمالية لإيريترية حتى الحدود الجنوبية لدولة موزمبيق، أو هي المنطقة المطلة على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وتمتد المنطقة في الدّاخل حتّى بلاد السودان الحالي، ومنطقة البحيرات الكبرى، وبحيرة تنجانيقا وتمتدّ في الجنوب حتّى موزمبيق، وفي الشمال حتىّ الصومال، كما يشمل مصطلح شرق إفريقيا كل الجزر المواجهة للسواحل الشرقية في القارة، والتي تقع داخل المحيط الهندي وتشمل جزر ممباسا (منبسي)، وكلوة، زنجبار، ماليندي، مافيا، بمبا، حزر القمر، مايوت وغيرها من الجزر الأخرى.

ويمكن تقسيم شرق إفريقيا إلى عدة مناطق على حسب الدول الحالية، تتمثل في: **منطقة القرن الإفريقي** التي تضم كل من الصومال، إثيوبيا، إريتريا، وجيبوتي، **منطقة وادي النيل أو النوبة** وهي بلاد السودان الحالي اليوم، منطقة البحيرات الكبرى، وتشمل أوغندة، روندا، بورندي، منطقة الساحل الشرقي والأوسط والجنوبي لإفريقيا، وتضم كينيا، تنزانيا، موزمبيق، وحتى مدغشقر.

أما بخصوص أهم المسطحات المائية والأنهار التي توجد بالمنطقة، فلدينا البحر الأحمر، وخليج عدن الذي يفصل بين شبه الجزيرة العربية، ومنطقة القرن الإفريقي، المحيط الهندي الذي تطل منه معظم دول الساحل الشرقي من الصومال إلى موزمبيق، وإلى جانب ذلك نجد نهر النيل الذي ينبع من منطقة البحيرات، ويمر ببلاد السودان باتجاه مصر، وله عدة روافد أهمها النيل الأزرق القادم من هضبة الجبشة والنيل الأبيض القادم من بحيرة فيكتوريا[1]، وهي المنبع الرئيسي للنيل، بالإضافة إلى بحر الغزال في الجهة الغربية للسودان وشرق تشاد.

---

[1] بحيرة فيكتوريا، أو فيكتوريا نيانزا تعدّ من أكبر البحيرات في إفريقيا، والثانية عالميًا تقع في منطقة منخفضة في وسط الهضبة الإستوائية، تبلغ مساحتها 96000 كم^2، أي ما يعادل مساحة إيرلندا، شواطؤها جميلة، ومشوقة، لكن من المستحيل على المرء أن يسبح فيها بسبب التماسيح، والفيروسات المنتشرة بها، أنظر،

– محمّد عوض محمّد: **نهر النيل**، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962

وعلى غرار ذلك تتوفر منطقة شرق إفريقيا على عدة بحيرات أكبرهم وأشهرهم هي فيكتوريا التي تقع في أوغندة، وهي المنبع الرئيسي للنيل، إلى جانب عدة بحيرات أخرى في أوغندة هي كيوجا[1]، ألبرت، إدوارد[2].

أما في تنزانيا فنجد بحيرة تنجانيقا كأهم وأكبر بحيرة بالمنطقة، وإلى الجنوب من ذلك توجد بحيرة نياسا التي تقع في الحدود بين جنوب تنزانيا، والشمال الغربي لموزمبيق، وشرق مالاوي (نياسالاند).

وطبيعة المناخ السائد في شرق إفريقيا نجد المناخ الاستوائي هو الغالب على العديد من الدول خاصة الواقعة في خط الاستواء كإثيوبيا، أوغندة، رواندا، بورندي، تنجانيقا، إلى جانب المناخ الحار والجار في الصومال، والحار الرطب في موزنبيق، في حين يسود مناخ البحر المتوسط في سواحل السودان المطلة على البحر الأحمر، والمناخ الشبه الصحراوي في الشمال والوسط منه.

أما فيما يخص المرتفعات نجد جبال الكليمنجارو 5895 متر في تنجانيقا كأكبر الجبال ارتفاعا في إفريقيا، ورابعا عالميا، وهضبة الحبشة، وجبال النوبة، وجبال فيرونجا، أو رونزوري حيث يبلغ ارتفاعه 5109 متر وتمتد من أوغندة إلى رواندا وبورندي حتى جمهورية الكونغو، وجبال باتيان وهو ثاني أعلى قمة في إفريقيا يقع في كينيا ارتفاعه 5199 متر.

ثانيا: أصل سكان منطقة شرق إفريقيا:

لا يُعرف الكثير عن أصل سكان شرق إفريقيا في عصور ما قبل التاريخ على وجه اليقين، ولكن يبدو أن أقدم السكان الذين عُرفوا فيما بعد قد عاشوا في المنخفضات تاركين السهول غير المأهولة، ويُرجع المسعودي أصل سكان تلك الأنحاء جميعها إلى أبناء كوش

---

[1] عبارة عن الشطر الغربي لسلسلة من البحيرات، والمستنقعات الواقعة في منخفض الأرض فيما بين خطي عرض 1 و2 شمالا، وبينها، وبين بحيرة فيكتوريا، أراض، وتلال مرتفعة، مستواها منخفض على مستوى بحيرة فيكتوريا، تّم اكتشافها لأول مرة من قِبل الغربيين، حيث وصل إليها لأول مرة الأمريكي "شاي لونج" في 1874، وكانت تُعرَف قبل هذا التاريخ ببحيرة 'إبراهيم باشا' (والد الخديوي إسماعيل) أنظر:

- إلهام محمّد علي ذهني: **بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ إفريقيا الحديث**. ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2009. ص237.

[2] واحدة من البحيرات الواقعة في شمال غرب أوغندة وهي في الحد الفاصل بين أوغندة وجمهورية الكونغو الديمقراطية، أنظر:

- Battistini René : **Géographie de L'Afrique oriental** : **Kenya**, **Uganda et Tanzanie**. Centre de documentation universitaire, Paris, 1969, p 20.

بن كنعان بن نوح عليه السلام حيث يقول: "ولما تفرق ولد نوح سار ولد كوش بن كنعان نحو **المغرب** حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا فسارت منهم طائفة بين المشرق والمغرب، وهم النوبة والابجة والزنج..."

ويقول في موضع آخر "وقطعت الزنج دون سائر الأحباش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب في بحر الزنج (نهر جوبا؛ أي النيل الأزرق)، فسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج"، وذلك كله قبل الميلاد.

والأحباش أنفسهم يدعون أنهم من نسل كوش بن حام[1] لكن المسعودي ذكر أنهم يُنسبون إلى كوش بن كنعان بن نوح عليه السلام، ويُحتمل أن يكون زنوج إفريقيا الذين يقيمون في الربع الشمالي الغربي استوطنوا الربع الشمالي الشرقي عندما وفدت عليهم هجرات حامية[2] قوقازية عن طريق شبه جزيرة العرب.

أبرز الهجرات العربية إلى بلاد شرق إفريقيا قبل الميلاد:

الأحباش الأوائل (الحاميون Hamites):

أثبتت الشواهد التاريخية أن المهاجرين الأوائل إلى منطقة شرق إفريقيا مانوا من الحاميين الذين نزحوا إليها في موجات متتابعة عن طريق باب المندب وسيناء في حقب غير معروفة قبل الميلاد، وطردوا الزنوج إلى الداخل وإلى الجنوب، وعُرف هؤلاء الحاميون باسم "الكوشيين"،

وقد شكلوا طبقة ارستقراطية بين الشعوب التي سيطروا عليها، والذين احتفظوا منهم بنقائهم الجنسي، وهم البجة في الشمال (السودان الحالي)، البيلين في إيريتريا، والأجاو في قلب المرتفعات بهضاب إثيوبيا، واحتل هؤلاء الحاميون المرتفعات الحبشية المعتدلة وتأثروا بالساميين الذين الذين امتزجوا بهم عندما وفدوا فيما بعد.

الساميون:

[1] سلاة حام هي النحو التالي: 1/ كوش هو أبو النوبيون، والبجة، ويقال لهم الكوشيون، 2/ مصراييم وهو أبو المصريين، 3/ فوت هو أب الأمازيغ، 4/ كنعان هو أبو الحوريون والجرجاشيون.

[2] الحاميون نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام، وهو الإبن الأصغر لأبناء نوح الاربعة ثلاثة آمنوا به وركبوا السفينة، وواحد غرق هو يام، وهم على التوالي: سام، يافت، يام، حام.

بعد الحاميون هاجر الساميون إلى تلك المنطقة من شبه الجزيرة العربية، والتي شبهها علماء تاريخ الأجناس البشرية بالمستودع البشري الذي ظل يفيض بهجرات بشرية على مدى التاريخ، فقد هاجروا منها على إثر الجفاف بعد انتهاء العصر المطير.

الجالا والصومال:

هم مهاجرون حاميون عبروا بوغاز باب المندب، وخليج عدن في عصور قديمة، واستقروا في البداية ببلاد الصومال بين نهر ويبي وخليج عدن وأخذوا أثناء امتدادهم يختلطون بالزنوج ويتزاوجون معهم، وانقسموا إلى ثلاثة أقسام كبيرة:

القسم الأول: الذين هاجروا شمالا إلى سهل الدناقل (دنقلة)، والمناطق الساحلية على البحر الأحمر ويعرفون بـ "عفر ساهوا"، وهم قبائل رعوية تعيش على السلب والغارة.

القسم الثاني: وهم الذين بقوا في أماكنهم وانتشروا انتشارا طبيعيا فيما حولهم حتى وصلوا المجرى الأسفل لنهر تانا في كينيا؛ إذ يعيش بعضهم فيها والبعض الآخر في إثيوبيا الحالية بمنطقة أوغادين (أوجادين)، واختلطوا مع المحليين ويعرفون اليوم باسم الصوماليين، وهم قبائل رعوية أَطلق عليهم الكتاب العرب لفظ البرابر.

القسم الثالث: وقم قبائل الجالا، وهم أكثر عددا من الصوماليين هاجروا شمالا وجنوبا وغربا، وزحفوا حتى على الحبشة واختلطوا مع الساميين، فتغير نظامهم الاقتصادي من الرعي إلى الزراعة.

البجة أو البجاة:

هو اسم لتلك القبائل الحامية الشمالية، وإن كان الإسم المتداول اليوم هو البِجة، ويرجع نسب البجة إلى تلك القبائل التي نزحت في بادئ الأمر من جزيرة العرب ثم اتصلت بقدماء المصريين، ومن هنا كانت الروابط بينهما منذ القدم، وقد عاشوا في المنطقة التي تمتد بين البحر الأحمر شرقا، ونهر النيل وعطبرة غربا، ومن المنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب إلى شمال إقليم أسوان في مصر، وبمرور الوقت قويت صلاتهم مع المدن الكبيرة المستقرة على شاطئ النيل مثل مروى، ودنقلة، ولكنهم لم يتأثروا بالمسيحية، وبقوا على وثنيتهم لمدة طويلة حتى جاء الإسلام.

وانقسمت قبائل البجة إلى ثلاث مجموعات هي:

المجموعة الشمالية: وهم العبابدة كانت لهم علاقات وثيقة بالفراعنة، واتخذوا اللغة العربية لغة رسمية لهم.

المجموعة الجنوبية: وهم بنوا عامر كانوا تحت التأثير الجبشي الشديد وتكلموا لغة التيجري.

المجموعة الوسطى: ويعرفوا بالبشارة والهدندوة، وقد احتفظوا بلغتهم ذات الطابع الكوشي

ولكن مع ظهور الإسلام وبداية انتشاره في المنطقة أسلمت جميع المجموعات واعتنقوا الإسلام وخضعوا للمؤثرات العربية، واتخذوا مظاهر الحياة العربية ووسائل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، وهو الأمر الذي جعلهم يدخلون في صراعات طويلة مع ممالك النوبة المسيحية، خصوصا خلال القرنين السابع والثامن الميلادي.

الزنوج:

يرجع المسعودي اصل الزنوج إلى أبناء كوش بن كنعان بن نوح عليه السلام، وقد اختلط معظم هؤلاء الزنوج بالقوقازيين من الحاميين والساميين، وتزاوجوا معهم على امتداد التاريخ، ويطلق على نتاج هذا التزاوج اسم البانتو[1] الشرقيين[2]، وقسم المسعودي بلادهم إلى ثلاثة أقسام بلاد الزنج، وسفالة الزنج (الموزنبيق وزيمبابوي)، وبلاد الواق واق[3] (مدغشقر).

وهذه الأخيرة أقصاها جنوبا أي على السواحل الشرقية الجنوبية للقارة الإفريقية في المنطقة من موزنبيق حتى مدغشقر، وقد اتخذه الزنج دار مملكة وملّكوا عليهم ملكا سموه وقليمي أو وقليمن معناه إبن الرب الكبير فمتى جار عليهم قتلوه.

وعاش هؤلاء حياة قبلية تستأثر كل قبيلة بمنطقة وتعتبرها منطقة نفوذ لها، كما انتشرت بينهم حياة السلب والغارة، وكانوا كما يقول المسعودي قبل دخولهم الإسلام عراة

---

[1] يمثلون تُلثي زنوج إفريقيا، وحاول العلماء تحديد الوطن الأصلي للبانتو، وتوصلوا إلى تحديد موطنهم الأصلي الذي يعود إلى منطقة خليج بيافرا، في الحدود بين نيجيريا والكمرون، وعليه يبدأ خطّ البانتو من خليج بيافرا على المحيط الأطلسي في الغرب، ويمتد متعرجا إلى شمال بحيرة فيكتوريا، وينتهي شمال خطّ الإستواء بقليل عند المحيط الهندي، ولا يُزاحم البانتو في أوطانهم سوى سلالتين ظئيلتي العدد هما، البوشمن، والهيتنتوت، إلى جانب وجود بعض العناصر الدخيلة مثل البوير، والأوربيين في الأطراف الجنوبية للقارة، وبعض الشعوب النيلية الحامية في الشرق، ومعنى كلمة بانتو هي رجال، أو مجموعة إنسانية ، أنظر:

– محمّد عوض محمّد: **الشعوب، والسلالات الإفريقية**، الدار القومية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965، ص 65.

[2] والبانتو الشرقيين بدورهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام هم: الشماليون، ويُطلق عليهم اسم 'بانتو البحيرات' (Lacustrains)، ويتجمعون حول بحيرتي فيكتوريا، وألبرت، ومنهم الباغندة، والبانتو الشماليون الشرقيون، وينحصرون في كينيا، وتنزانيا، والبانتو الجنوبيين الشرقين، وهم البانتو الخِلص. أنظر،

– ظاهر جاسم، محمد. **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال**. المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،2002، ص 15.

[3] الواق واق نسبة إلى شجر يُنتج ثمار ملق بشعر يشبه شعر النساء لما تسقط هذه الثمار تحدث صوت على نغمة واق واق.

أو شبه عراة متخلفين في ميدان الحضارة بالرغم من وجود ثروات طبيعية ضخمة نباتية وحيوانية ومعادن نفيسة استغلها مع مرور الوقت تجار عمان وشيراز.

المحور الثاني: الممالك القديمة في شرق إفريقيا:

مقدمة: عرفت منطقة شرق إفريقيا قيام عدة ممالك سياسية كانت أقدم مقارنة بممالك غرب ووسط إفريقيا، وهذا لتأثير الحضارات المجاورة لمنطقة شرق إفريقيا، كحضارة اليمن القديم، أو الحضارة المصرية في الشمال، حيث تسربت معالم الحضارة إلى شرق إفريقيا عبر وادي النيل والبحر الأحمر، ما ساهم في قيام ممالك قديمة تركت وراءها حضارة راقية جدا تنافس حضارات شمال إفريقيا وحتى حضارات أوروبا.

1-.امبراطورية كوش - نباتا ومروى.

قبل أن تقوم امبراطورية كوش في بلاد النوبة بالسودان الحالي اليوم كانت المنطقة خاضعة لنفوذ المصريين القدماء منذ 2000 سنة قبل الميلاد، وهذا لما كانت تميزه بلاد النوبة من أهمية اقتصادية جعلت منها موردا حقيقيا لاقتصادها، كما ساهم القرب الجغرافي بينهما، وكذا وجود نهر النيل كرابط بين المنطقتين في إحكام السيطرة المصرية على بلاد النوبة لآلاف السنين، وقبل قيام امبراطورية كوش قامت في المنطقة حضارة تعرف بمملكة كرمة 1730- 1580 قبل الميلاد في الجزء الشمالي من منعطف النيل؛ لكن المعلومات عنها قليلة جدا.

إن بداية بروز امبراطورية كوش ليست معروفة كثيرا لدى المؤرخين، ولكن ما هو متفق عليه أن الامبراطورية بدأت مع الملك "ألارا" الذي خلفه "كاشتا" والذي يشتق اسمه فيما يبدوا من كوش، وهذا في حدود عام 750 ق م.

ويعتبر الملك "بعنخي" أو "بي" أشهر ملوك كوش القديمة، وعلى يديه بدأت بدأت المملكة تتوسع، وتأخذ استقلاليتها عن مصر القديمة التي كانت تحت الأسرة الخامسة والعشرين، وكان الملك "بي" رحيما بشعبه محبا للخيول والغزو، وهو ما سيمكنه فيما بعد من غزو مصر ويصبح بذلك أول ملك نوبي يحكم عرش مصر الفرعونية في الأسرة الخامسة والعشرين.

ومن جهة أخرى نصبت أخته الأميرة "أمنيردس" نفسها كاهنة منقطة لعبادة الإله آمون، فصار بذلك إلههم الأكبر، وحسب ما عثر عليه علماء الآثار من لوائح أثرية للملك "بي" توجد اليوم بالسودان عام 1920 تصنف النظام الفدرالي لإمبراطورية كوش مع إعلان سيادة الإله آمون فمما جاء فيها "لقد منحني آمون 'نباتا' السيادة على كول الناس فمن

أقول له أنت الملك يصبح ملكا.... لقد منحني آمون طيبة السيادة على مصر..... إن الآلة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك، أما أنا فقد توجني آمون"

وبعد وفاة الملك بعنخي "بي" تولى الحكم أخوه "شباكا" سنة 713 ق م، وفي عهده اصبحت امبراطورية كوش تظم كل وادي النيل، وابتداء من حكم هذا الأخير بدأت تظهر نهضة عمرانية قام بتوسيعها بعده خلفاؤه ابناء "بي"، وهما 'شاباتكا' (700- 690 ق م)، وطهرقا العظيم (690- 664 ق م).

نباتا العاصمة الأولى لامبراطورية كوش:

بعد الانسحاب الكوشي من مصر تحت ضغط الأشوريين يدخل تاريخ كوش مرحلة صعبة، ويصبح تتبع سيرة الملوك مسألة شاقة، وقد استمرت المملكة حوالي ألف عام أخرى من الوجود زادت فيها الصبغة الإفريقية، وظلت محتفظة باسمها كوش، وعلى الرغم من تأثر هذه الحضارة بالحضارة المصرية فهي في الحقيقة حضارة إفريقية كانت تتقوقع على نفسها تارة وتارة أخرى تحاول الإرتباط بالحضارة المصرية، وكانت تصلها بين الحين والآخر تيارات ثقافية من البحر المتوسط، وبالأخص بعد تأسيس الإسكندرية.

وفي البداية ظلت العاصمة في نباتا عند سفح جبل برقل، وفي وقت لاحق حوالي القرن 6 ق م انتقلت العاصمة جنوبا إلى مروى، ولا نعرف على وجه التحديد مدى اتساع مملكة كوش.

وعلى مر عدة قرون بقيت الصبغة المصرية غالبة على الملوك ال,ائل الذين دفنوا في نوري، حيث دفنوا في مقابر تعلوها أهرامات ذات طراز مصري؛ حتى أن الزخرفات في حجرات الدفن والتوابيت المنحوتة من الغرانيت كانت تتماشى مع الأسلوب المصري.

ولم يدم قيام العاصمة نباتا تاريخ 591 ق م حتى قامت جيوش ملك مصر "أبسماتيك الثاني" الذي اعتلى العرش في 592 ق م بشن حملة عسكرية على بلاد كوش عام (591 ق م) استولت جيوشه من خلالها على العاصمة نباتا.

نقل العاصمة إلى مروى:

على اثر حملة الملك المصري "أبسماتيك الثاني" توسعت الهوة بين الشمال والجنوب فراح الكوشيون ينقلون عاصمتهم من نباتا إلى مروى التي تقع إلى الجنوب من نباتا، وعلى مسافة غير بعيدة من الجندل (الشلال) السادس، وكان "أسبلتا" أول ملك يتخذ منها عاصمة غير أن نباتا بقيت العاصمة الدينية للمملكة، وظل الملوك يدفنون في مقبرة "نوري" حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد.

وهناك تفسير آخر لنقل العاصمة إلى الجنوب يستند إلى عوامل مناخية واقتصادية، فالسهوب حول مروى أفسح منها حول نباتا التي تحاصرها الصحراء، فإلى جانب تربية المواشي قامت الزراعة، وهذا لتساقط الأمطار بها صيفا، وقد حفرت أحواض ضخمة للري حول المواقع الرئيسية، ومن المؤكد أن التجارة كانت نشطة لأن مروى كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر، وأعالي النيل والتشاد.

وفيما يخص ترتيب ملوك امبراطورية كوش وفترة حكم كل واحد منهم تبقى تشوبها الكثير من الغموض؛ لأن الكتابات تكاد تكون غير موجودة، وما كتب فقط من الآثار المادية التي حصل عليها علماء الآثار، وعلى ضوء ذلك كان الملك "نستاسن" آخر ملك يدفن في مقبرة "نوري" 300 قبل الميلاد، ومن بعده صار الملوك والأمراء يدفنون في مقابر مروى.

وفيما يتعلق بالديانات فسكان مروى تخلو بمرور الوقت عن عبادة الإله آمون وراحوا يعبدون الإلهين "أبيدماك (الإله الأسد) والإله "سبوميكر"، وهذا يعني قطع العلاقة تماما مع مصر.

لغة مملكة مروى:

مع مجيئ "شانا كدختي" 170- 160 ق م يبدأ سيطرة نظام الأم، أو رئاسة الأم للأسرة، وقد عُثر في بناء فخم باسم هذه الملكة في "النقعة" على نقوش مكتوبة بالهيروغليفية المروية، وهي من ضمن أقدم ما عرف من الكتابات، والمعروف أن هذه الهيروغليفية مقتبسة من نظيرتها المصرية، ولكنها ذات مدلولات لفظية مختلفةن وتكتب وتقرأ بطريقة عكسية للهيروغليفية المصرية، وقد يدل هذا على رغبة متعمدة في الاختلاف، وتكتب من اليسار إلى اليمين.

روما ومرى:

إن ارتباط مروى بالعالم الخارجي لا يظهر إلا مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبالخصوص مع الرومان، وهذا في حادثة مشهورة، فحصل وأن قام المرويين بنهب مدينة "أسوان" وسلبوا تمثال امبراطور روما " أغسطس"، ونقل إلى مروى، فقام والي مصر الرومانية آنذاك "بترونيوس" بحملة تأديبية واستولى على "نباتا" عام 23 قبل الميلاد، ووضع الرومان حامية مستديمة في "بريمس" (قصر إبريم)، والتي كان لها أثرها في صيد المرويين، وفي عام 21 قبل الميلاد أبرمت اتفاقية سلام بين الطرفين في "ساموس" حيث تصادف أن كان الامبراطور الروماني "أغسطس" يقوم آنذاك بزيارة إلى هذه الجزيرة، وعلى إثر هذه الاتفاقية انسحبت القوة الرومانية وألغيت الجزية التي فرضت على النوبيين، وجُعلت "هيراسكامنوس" كمنطقة ثابتة للحدود بين الامبراطوريتين الرومانية والمروية.

ازدهار مملكة مروى:

تعد الخمسين سنة الأخيرة في فترة ما قبل الميلاد هي أزهى عصور مملكة مروى (كوش)، فقد شيد ملوكها العديد من المباني والمعابد الكبرى على النمط المصري، وهذا في عهد الملكة "أمنيشختو" والملك "أكينيداد"، وما يثبت الرخاء الكبير الذي عرفته المملكة في هذه الفترة هو ما وقف عليه علماء الآثار، حيث عثر الإيطالي 'فيرليني' عام 1834 على مجوهرات فاخرة تعد اليوم من نفائس متحف برلين ومتحف ميونخ.

وفي الشمال عند الشلال الثاني بنا الملك والملكة معبدا في عمارة، حيث تميزت نقوشه بالطابع المصر، كما قام الملكان بإعادة بناء نباتا التي خربتها حملة "بترونيوس" وبالخصوص معبد الإله آمون.

المظاهر الحضارية لنباتا ومروى:

أ/ النظام السياسي:

يعتبر الاستقرار والاستمرار من أبرز سمات النظام السياسي الذي ساد النوبة (كوش) وشمال السودان في الفترة ما بين القرن الثامن قبل الميلاد والرابع قبل الميلاد، واستمر الاستقرار أيضا حتى القرون الأولى قبل وبعد الميلاد .

طبيعة النظام الملكي:

تتفق جميع الدراسات الحديثة على أن الأسرة الحاكمة كانت ذات أصل محلي خلافا لما كان شائعا أنها من أصل ليبي فطريقة اختيار الملوك ودور أمهات الملوك والعادات الجنائزية وبعض الممارسات الأخرى كلها تشير إلى حضارة أصلية ونشأة محلية.

وطريقة اختيار الملك الجديد كانت من الملامح الغربية التي تميز بها النظام السياسي المروي، فكان سكان كوش يُصرّون على أن اختيار الملك الجديد يجب أن يكون بواسطة هاتف أو وحي رباني يوحي إلى الكهنة، وقد أكد "ديودور الصقلي" ذلك بقوله: "يقوم الكهنة في البداية باختيار خيرة المترشحين، ومن بين هؤلاء يتقبل الناس من يختاره الرب، حيث يطاف به في موكب، ثم يعامل ويخاطب بكل اجلال وكأنه رب لذاته، حيث وكلت إليه أمور المملكة من خلال مشيئة ربانية".

وتدخل الكثير من المراسيم التي تسبق اعتلاء الملك العرش من طقوس وثنية وزيارات لمعابد الآلهة، وضرب آلات الطبل، وغيرها.

ومن جهة أخرى هناك مجموعة من الأبحاث تقول أن طريقة اختيار الملك كانت وراثية حيث يعتلي الحكم واحد من أبناء الملك ولا يشترط أن يكون الأكبر عكس ما كان في

العرش الفرعوني، أو الشرق الأدنى، ويأتي الاختيار من قبل قواد الجيش الكبار والموظفين وزعماء العشائر.

وكانت سلطة الملك مطلقة لا يشاركه فيها أحد، فقد كانت تتحتم عليه أن يحكم طبقا للقانون العرفي، ولا يسمح له بتجاوزه أو انتهاكه، وكان فوق ذلك مقيدا بكثير من المحرمات كطلب الكهنة من الملك أن ينتحر وهي عادة كانت منتشرة عند ملوك كوش إلى غاية مجيئ الملك "أرجمنيس" 250- 215 قبل الميلاد فقام بإعدام كبار كهنته، وصارت تلك العادة غير موجودة.

وإلى جانب سلطة الملك كانت الإدارة تفتقر إلى إدارة مركزية باستثناء كبير الكهنة الذي يعمل إلى جانب الملك، وقائد الجيش، وبعض الموظفين، وكانت مروى على مر العصور هي إقامة الملك الدائمة، ومع ذلك وجدت بقايا القصور في الأقاليم التابة لكوش، وهو دليل على وجود حكام إقليميين تحت سلطة الملك.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

يعتمد النشاط الاقتصادي ببلاد كوش على نوع الزراعة المعتادة في وادي النيل حيث السهول الواسعة والأراضي الخصبة، ورغم ذلك كانت النوبة السفلى (مروى) قليلة التساقط مقارنة بالنوبة العليا (نباتا) لذلك كان النشاط الزراعي وحتى استقرار السكان بالمنطقة الشمالية أكبر من الجنوبية، ولم تعمر المنطقة الجنوبية للسكان إلا مع نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد على إثر ادخال نظام الساقية، أما في النوبة العليا فإن السهل الفيضي مثل حوض كرمة وحوض نوري جعل الزراعة ممكنة سواء بواسطة فيضان النيل أو بآلات رفع المياه مما ساعد على نمو مراكز حضارية لها أهمية تاريخية مثل جبل برقل، وكاوا، وبنو، وصولب، وعمارة، وأهم المزارع فيها كانت النخيل والكروم.

في حين تربية الحيوانات اشتملت على عدة أنواع مثل الماشية والضأن والماعز والخيول، أما الجمال فقد دخلت في القرن الأخير فقط من الميلاد.

وإلى جانب الزراعة والحيوانات اعتبرت كوش احدى المناطق الرئيسية لإنتاج الذهب في العالم القديم، وتقع مناجم الذهب فيها بين النيل والبحر الأحمر، كما تعتبر كوش أكبر مركز لصناعة الحديد في العالم القديم، فقد أنشأت المئات من الأفران الضخمة لصهر معدن الحديد وتجهيزه للتصنيع، وتصديره إلى الخارج إما في شكل سبائك أو في شكل منتجات كاملة الصنع كالأسلحة الحديدية بأنواعها المختلفة بالإضافة إلى المصنوعات الحديدية التقليدية كالفؤوس والمناجل وأسنان المحاريث.

وقد أدى هذا الازدهار الصناعي والانتاجي إلى خلق علاقات تجارية دولية بين مملكة كوش وغيرها من الممالك الأخرى في إفريقيا وآسيا، واحتك الكوشيون بغيرهم من الأمم الأخرى، وتأثروا بالفعل بالعديد من الثقافات والحضارات التي كانت تتميز بها تلك الأمم.

كما ازدهرت في عهدهم أعمال الصياغة للذهب والأحجار الكريمة وأشغال التحف الراقية المصنوعة من الذهب والعاج التي كانت تصدر بدورها إلى دول أخرى خارج إفريقيا حتى وصلت إلى جنوب غرب آسيا، حيث كانت تزين بها قصور أباطرة الفرس؛ بل وصلت حتى إلى الصين مما خلق علاقات تجارية بين مملكة كوش وملوك أسرة هان الصينية التي كانت تحكم بلاد الصين أيامهم.

وبالحديث عن الجانب الاجتماعي لا توفر المعلومات الكافية عنه؛ إلا أنه كانت هناك طبقة عليا أو حاكمة تشمل الملك وأقاربه ورجال البلاط وارستقراطية محلية تشغل المناصب الادارية والعسكرية، ثم طبقة كهنة المعابد ذات النفوذ القوي، وفي آخر السلم الاجتماعي يوجد الرقيق وأغلبهم من أسرى الحروب، والغالبية العظمى من السكان هم المزارعون والبقارة الذين يربون الماشية.

أما بخصوص الديانة الكوشية فإن المرويين استقوا تعاليمهم الدينية من مصر، فالآلهة التي تعبد في المعابد المروية يطابق أغلبها الآلهة المصرية لذلك أعتبر آمون ربهم الأعلى، ومنه استمدوا حقهم في العرش والمُلك، وبجانب الآلهة الفرعونية أمثال إزيس وحورس، وتحوت، وأرسينوفيس، فقد عبدت آلهة مروية أخرى مثل الإله الأسد (أبيدماك)، أو (سبوميكر)، حيث يعتبر أبيدماك كبير الآلهة في المملكة، وهو على شكل أسد له ثلاثة رؤوس، وهو ما يدل على تأثر الكوشيون بالفن الهندي.

أما الثقافة العامة فكان تأثر الكوشيون بالثقافة المصرية إلى جانب ثقافة العرب في شبه الجزيرة العربية الذين كانوا على اتصال مستمر ببلاد كوش على مدى آلاف السنين.

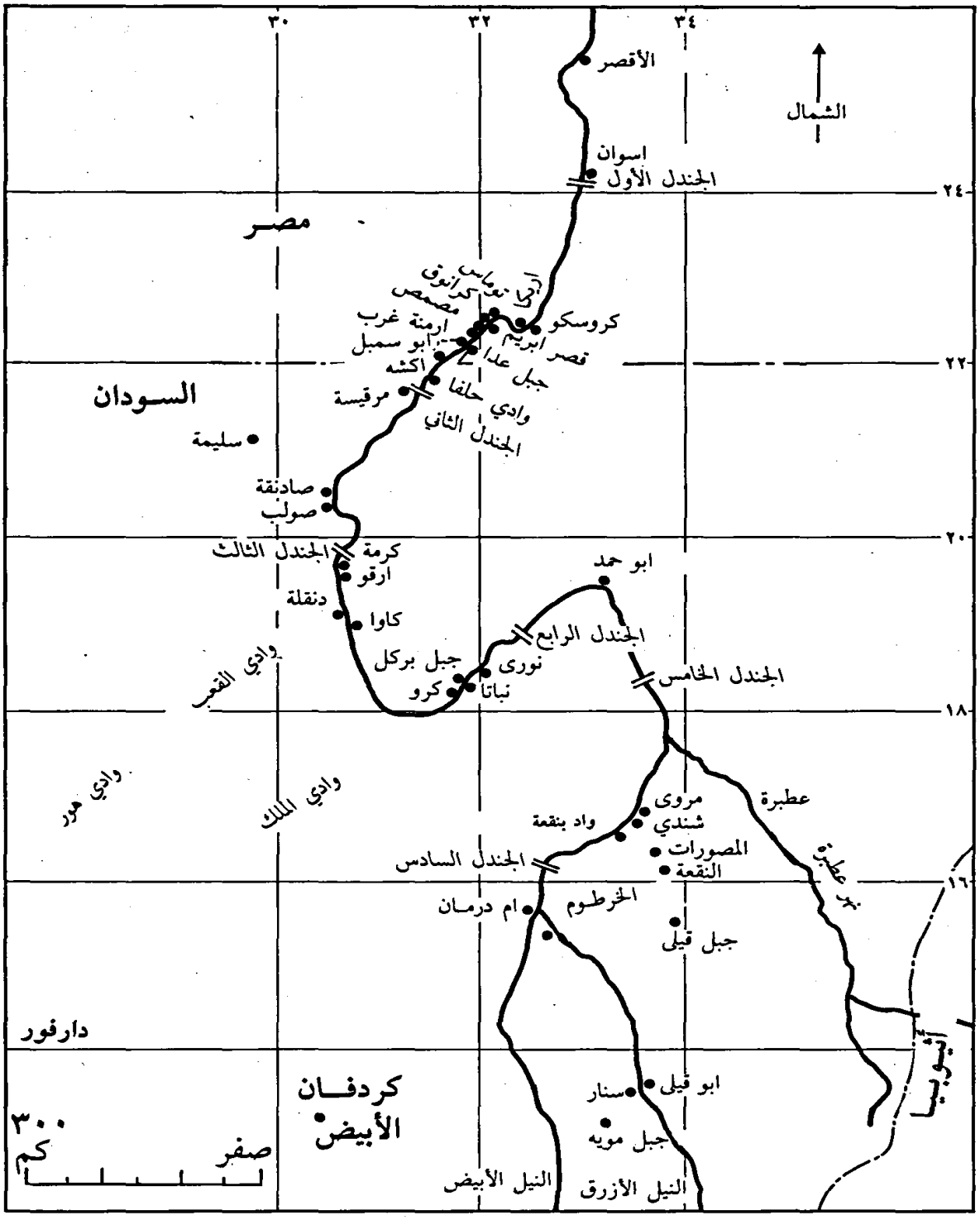

مواقع من مروى

2/ النوبة وانتشار المسيحية:

تعتبر النوبة أو نوباديا احدى أهم الممالك القديمة التي ظهرت في وادي النيل مع نهاية فترة ما قبل الميلاد، حيث بقيت تحت نفوذ دولة مروى إلى غاية القرن الثالث الميلادي حيث بقيت تحت حصلت على حريتها بعد انهيار مروى، وتشمل نوبادية الرقعة الجغرافية الواقعة بين الجندلين الثاني والثالث؛ أي أنها قامت في المنطقة الشمالية.

واتخذت نوبادية مدينة 'فرس' عاصمة لها وإلى الجنوب من نوباديا قامت في القرن السادس الميلادي مملكة أخرى امتدت رقعتها حتى مروى القديمة، وتعرف باسم مكورياأو المقرة أو مغرة، وفي جنوب المقرة قامت مملكة ثالثة تعرف بـ علوة أو علوة ألوديا .

يعتبر تاريخ 543م تاريخ دخول المسيحية لبلاد النوبة بصفة رسمية، وهذا على إثر حملة القس "يوليانوس" مبعوث الإمبراطورة "ثيودورا" امبراطورة بيزنطة، ورغم ذلك أثبتت العديد من الدراسات أن المسيحية تغلغلت إلا بلاد النوبة قبل ذلك التاريخ، وقد يرجع ذلك إلى فرار المصريين إلى النوبة حملوا معهم معتقداتهم الدينية إلى النوبيين في المنطقة الواقعة جنوب أسوان.

واستهوت العقيدة الجديدة قلوب الناس وبتأثير من مصر المسيحية، كما كان اعتناق المسيحية قرارا سياسيا هاما اتخذه حكام النوبة، كما اتاحت لهم سبلا للاتصال بمصر، حيث تشير الدلائل إلى أن بعض الأساقفة كانوا يقيمون في جزيرة "فيلة" على مقربة من مصر، كما ساهمت المسيحية باتصال حكام النوبة حتى مع بيزنطة.

وعلى النقيض من النوبة الشمالية التي اعتنقت المذهب المينوفيزي (وفقا للقول أن للمسيح طبيعة واحدة) اختارت المقرة المذهب الملكاني الأرثوذكسي على يد بعثة تبشيرية بعث بها الامبراطور "جيستنيان الثاني" بين عامي 565 و 570م.

لكن بحلول عام 660م اعتنق سكان المقرة المذهب المينوفيزي، كما وصلت بعثة بيزنطية إلى علوة ألوديا بمساعدة النوباديين عام 580م، وقد لاحظ رئيس هذه البعثة الأسقف "لوجينيوس" Loginus أن البلاد قد تم تنصيرها جزئيا بواسطة الأكسوميين، وعليه فإن النوبة قد صارت في أواخر القرن السادس الميلادي قطرا مسيحيا يشمل ممالك ثلاث هي النوبة في الشمال، المقرة في الوسط، وعلوة في الجنوب.

ومع أن النوبة على النقيض من مصر لم تكن جزءا من الامبراطورية البيزنطية فمن المؤكد أن الصلات التي أقامتها بعثتا القسين "يوليانوس" و "لونجينيوس" قد ربطت النوبة ببيزنطة، فنظام الحكم في النوبة كان صورة طبق الأصل من البيروقراطية البيزنطية.

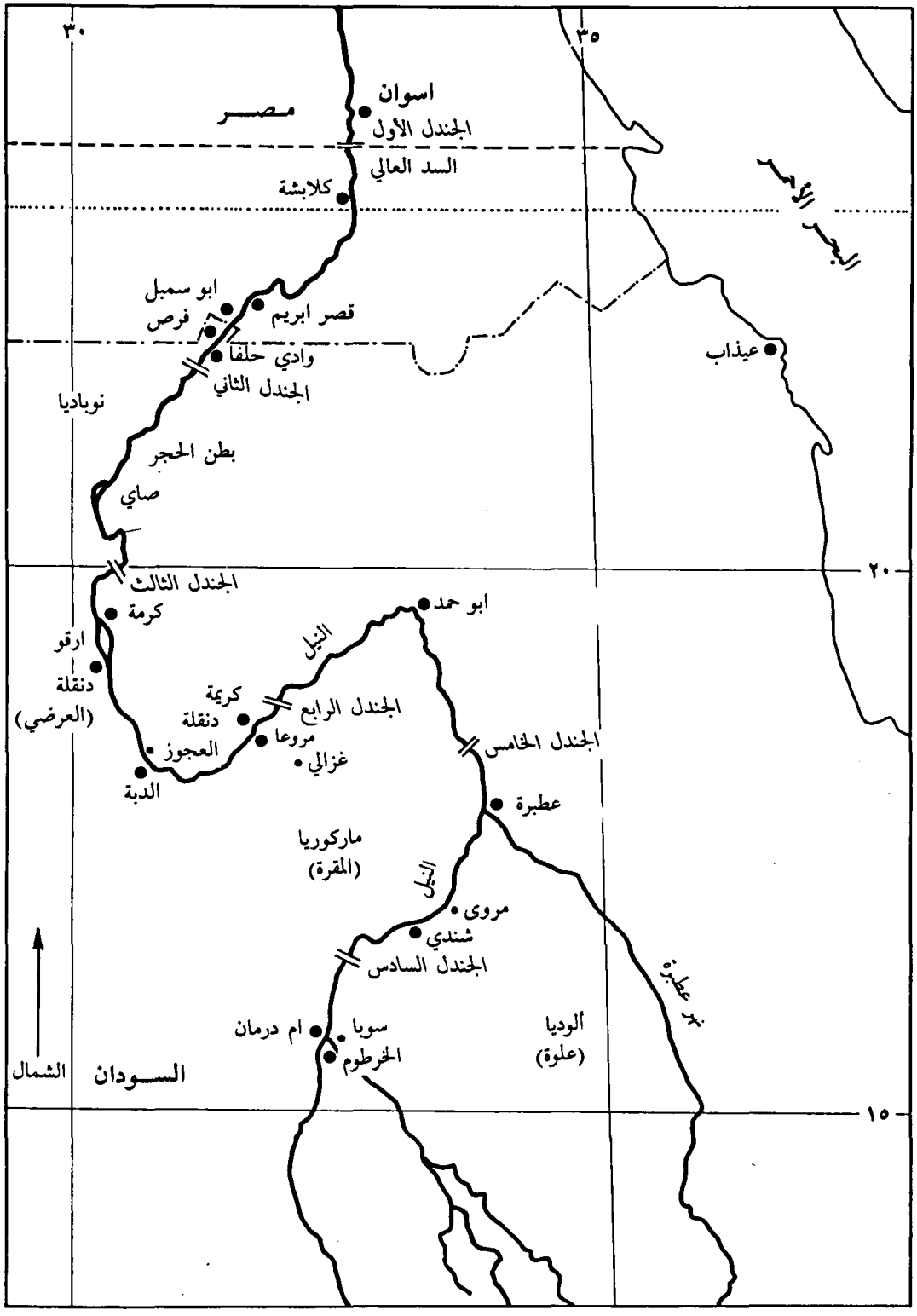

النيل من الجندل الأول الى الجندل السادس

3/ مملكة أكسوم (إثيوبيا) ق1 – ق7 م:

قبل أن تتأسس كانت منطقة إثيوبيا وإيريتريا تابعة إلى ممالك شبه الجزيرة العربية خصوصا مملكة سبأ التي كان لها تأثير واضح على المنطقة خصوصا المباني والمعابد، وتقول المصادر الأولية أن تاريخ مملكة أكسوم يمتد من القرن الأول حتى عام 1000م؛ لكن فترة سيادتها واستقلالها تنتهي عند القرن السابع الميلادي.

وتقول المصادر أيضا أنه تعاقب على عرش أكسوم قرابة 20 ملكا يعرف أغلبهم من عملتهم، ومن أشهر هؤلاء الملك 'عيزانا' والملك 'كالب'، ومن أشهر المصادر التي تؤرخ لحضارة المملكة نجد "بلين" الذي يتحدث عن أكسوم باسم أدوليس (عدولي)، والمؤرخين العرب كابن هشام، وابن حوقل إلى جانب الاعتماد على النقوش والآثار المادية التي انطلق منها علماء الآثار في تأريخهم للمنطقة.

وعلى ضوء ذلك فقد حدد علماء الآثار مملكة أكسوم أنها مستطيلة الشكل بطول يبلغ 300 كلم وعرض 160 كلم، وتقع بين خطي عرض 13 و 17 شمالا، وخطي طول 30 و 40 شرقا، وهي تمتد من كرن في الشمال إلى ألاقي في الجنوب، ومن أدوليس على الساحل شرقا إلى تكازي غربا، وورد اسم أكسوم لأول مرة في كتاب الطواف في بحر إريتريا، وذلك في نهاية القرن 1 الميلادي، كما ذكر عند بطلميوس خلال القرن الثاني الميلادي.

ويعطينا كتاب الطواف في بحر ايريتريا معلومات عن أدوليس أيضا حيث يذكر أنها تقع في الشمال لكن في الداخل؛ أي على بعد 50 كلم جنوب مصوع، وكانت أدوليس السوق الكبير ولكل منتجات الأكسوميين وخصوصا العاج.

وتقول نفس المصادر دائما أن أكسوم وأدوليس هما الموقعان الوحيدان اللذان احتفظا باسمهما القديم، ولا تزال أدوليس فيها بعض النقوش والآثار يطلق عليها اسم "عزولي" أو "عدولي".

وبالحديث عن أكسوم المملكة فقد كانت خلال القرن الثالث تتمتع بصيت ذائع طبقا لنصوص تلك الفترة، حيث وصفوها بأنها الثالثة في العالم، كما أن المباني الضخمة وبعض الدلائل المادية مازالت تحتفظ بذكرى عهد تاريخي مجيد، حيث كانت أكسوم تعرف بمبانيها ذات الطوابق العالية، وهو ما يمزها عن غيرها من الممالك الأخرى، واشهر هذه المباني هي ثلاث: "إند سمعون"، "إند ميكائيل"، "تعخا ماريام".

كما تم اكتشاف ثلاثة أفران من الطوب المحروق في الجانب الغربي من المدن الثلاث، ويبدوا أنه كان يستخدم في التسخين أو الإحماء، بالإضافة إلى موقع "دنقور" الذي

يعتبر أحسن مثال للعمارة الأكسومية، كما وجد مبنى آخر نسبته الروايات إلى الملك 'كالب'، وابنه 'قبرا مصقل'.

أما أدوليس التي تقع إلى الداخل وتغطي الصخور والرمال والأشجار اليوم جزءا من مخلفاتها؛ لكن ما عثر عليه يدل على أنها كانت شكل مستطيل طوله 500 متر وعرضه 400 متر.

ومن جهتها المدينة الثالثة وهي 'مطرا' التي تقع على الهضبة الإيريترية وعلى بعد 135 كلم جنوب أسمرة اليوم، ويوجد بها واحد من اقدم المواقع الأثرية تنتمي أجزاؤه السفلى إلى بناء كبير من العصر العربي الجنوبي، كما كشفت الحفريات عن وجود أربع فلات كبيرة وثلاثة كنائس مسيحية، وحي سكني يظم 30 بيتا.

أما المدينة الرابعة وهي "كوهايوتو" التي تقع إلى الشمال من مطرا على ارتفاع 2600 متر، توجد منها العديد من الأطلال ذات الأهمية المعمارية، حيث توجد عشرة تلال تحتوي على بقايا مبانٍ كبيرة تنتمي إلى نهاية العهد الأكسومي.

وعلى ضوء ما سبق كانت هذه المدن السابقة بمثابة مجتمعات متلاحمة مكتظة بالسكان، وهي قريبة من بعضها البعض، وقد أثبتت الحفريات أن تلك الأماكن مراكز مدنية حقيقية.

وما يميز المعمار الأكسومي بشكل عام هو استخدام الحجارة والتخطيط المربع أو المستطيل، والقواعد السفلية للمباني هي مدرجة تقام من فوقها المباني الضخمة، وأسلوب البناء لا يستخدم فيه أي بلاط غير الطين، وأغلب الفيلات والقصور كانت تشتمل على طابق فوق الطابق الأرضي على الأقل.

ومن جهة أخرى اشتهر سكان أكسوم باشتغالهم في الفخار، حيث برعوا في صناعة الأواني الفخارية التي تستعمل غالبا في الأغراض المنزلية، وهي تصنع من الطين الأسود والأحمر، كما اشتهروا بتزيين تلك الأواني برسومات مختلفة تسقل على جوانبها.

وأكثر ما يميز أكسوم في جانب الآثار والنحت هو قطع العملات المتداولة، حيث منها من كان يتم التعرف على أسماء ملوك المملكة، فقد أتاحت التعرف على 18 ملكا من ملوك أكسوم، واغلب تلك القطع مصنوعة من البرونز يتراوح حجمها من 18 إلى 22 ملمتر.

وتنقسم المملكة الأكسومية إلى أكسوم الأصلية والدويلات التي تخضع لها، بحيث أن حكامها خاضعين لملك ملوك أكسوم، ويدفعون لهم الجزية، وكان الإغريق يطلقون على

عاهل أكسوم لقب ملك (basileus)، وملوك القاطعات الأخرى لقب حكام (archantes)، أو الطغاة (tyranni)، أو زعماء القبائل (ethnarchs).

وكان لكل شعب ومملكة وإمارة ومدينة وقبيلة نجاشي خاص بها مهمته هو الإشراف على عملية البناء، وانتشر وجود الملوك التابعين لأكسوم انطلاقا من هضبة "تقري" إلى مرتفعات الحبشة، وحتى إلى شبه الجزيرة العربية، وبعد انتصار الملك "عيزانا" امتدت الدولة إلى أرض النوبة العليا.

وبخصوص جمع الجزية كانت تتم عبر طريقتين؛ إما أن يرسل الملوك التابعين لأكسوم جزيتهم سنويا إلى المملكة أو أن يجول ملك أكسوم نفسه مصحوبا بحاشية كبيرة في أنحاء مملكته ليجمع الجزية.

وتكاد المعلومات لا تتوفر عن نظام أكسوم الإداري الذي يبدوا أنه كان نظاما غير متطور، حيث أن أقرباء الملك هم من يديرون شؤون المملكة، وكانت قيادة الجيوش توكل إلى الملك نفسه أو لأخيه.

<u>النشاط التجاري لأكسوم:</u>

ما يميز أكسوم عن باقي الممالك الأخرى في المنطقة هو تفوقها التجاري، حيث كانت دولة تجارية من الطراز الأول، وهذا لاستراتيجية موقعها، وكانت أكسوم أول دولة إفريقية مدارية تقوم بضرب عملة خاصة بها، حيث أنه لم تكن أي دولة من الدول التابعة لها بما فيها حمير باليمن وعلوة بجنوب السودان لم يكن لها عملة خاصة.

ولم يكن ضرب العملة نشاطا تجاريا فحسب؛ بل سياسيا أيضا فهو يدل على استقلال ورفاهية أكسوم، ,اسماء ملوكها، وشعارات حكمهم، وكان أول ملك أكسومي روج لملته الخاصة به هو الملك "أنديبس" endybis في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد، وكانت العملة الأكسومية شبيهة بالبيزنطية.

وانطلاقا من روايات الكتاب الرومان والبيزنطيين يمكن أن نحصل على فكرة عن السلع التي كانت تصدرها أكسوم، حيث كانت تشمل صادراتها العاج، جلود فرس البحر، القرود، الرقيق، تبر الذهب، إلى جانب العطور والذهب والحيوانات.

أما بخصوص المواد التي يتم الحصول عليها خارج أكسوم هو الزمرد من صحراء النوبة ويتم تصديره إلى شمال الهند، إلى جانب ذلك كانت تصدر المواد الزراعية، حيث أن القمح الإثيوبي الشهير كان يصدر إلى البلدان المجاورة إلى جانب تصدير الألبان، والأدوات التي يقوم بإنتاجها الصناع والحرفيين.

أما وارداتها فشملت بعض المواد الغذائية مثل الخمور وزيت زيتون اللاذقية (السوري)، ومن الهند كانت تستورد الأرز وحتى القمح كذلك، وقصب السكر، كما كانت مصر مصدر لاستراد الأقمشة الخشنة والأدوات المصنوعة من الزجاج الشفاف، وعلى غرار ذلك تاجر سكان أكسوم في الرقيق حيث تشير نقوش ومصادر "عيزانا" التي تتحدث عن حروب أكسوم في حمير إلى أسرى الحرب الذين كانوا يعتبرون سلعة مرغوب فيها من قبل التجار الأجانب .

وازدادت الحركية التجارية أكثر بعد ان أخضع ملك اكسوم بلاد النوبة العليا وجنوب شبه الجزيرة العربية، وإقليم بحيرة تانا، وقبائل الصحاري المحيطة بإثيوبيا آلت إليه السيطرة على الطرق التجارية التي تصل مصر وسوريا بأقطار المحيط الهندي، ومداخل شمال شرق إفريقيا، كما أصبح مضيق باب المندب واحد من الطرق المائية الرئيسية الثلاث في العالم القديم.

الحياة الثقافية:

مع استقرار الحياة السياسية وتطور العمران وازدهار التجارة بدأت تظهر ثقافة خاصة للمجتمع الأكسومي، حيث ظهرت جليا في النقوش والنُحت التي برزت ما بين القرنين 2 و 4 الميلادي فتغيرت مثلا النقوش التي كانت تكرس للآلهة تدريجيا إلى وصف تفصيلي للانتصارات التي حققها ملوكها، ومن النقوش الأكثر إثارة للانتباه في ذلك الصدد، تلك النقوش الإثيوبية والإغريقية التي تصور الملك "عيزانا" الذي بلغ قمة الابداع التعبيري في نقش يتضمن وصفا كاملا لحملته النوبية.

وتتمثل الأفكار الأساسية لتلك النقوش في تمجيد عاهلٍ قويٍ منتصرٍ، تعد إثارة غضبه ضربا من الجنون وحمدا للآلهة الذي يحظى الملك بحمايته الخاصة والدائمة، وقد صاحب ذلك تطورا موازٍ في الشعارات المكتوبة على العملة إلى جانب صورة وإسم ملك كل فترة.

ومن جهة أخرى برع الأكسوميين في الزخرفة خصوصا زخرفة العمارات والقصور الكبرى التي كانت تنفرد بها المملكة عن غيرها من الممالك الأخرى، وأشهر ما عرفت به أكسوم في مجال النحت والعمارة هو المسلة الحجرية البالغة الضخامة التي يبلغ ارتفاعها 33.5 متر تقف على مصطبة طولها 114 متر.

كانت وثنية الأكسوميين تشبه إلى حد بعيد ما كان يدين به أهل جنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت ديانة متعددة الأرباب لها خصائص العبادات الزراعية والرعوية، وكان الأرباب الذين تمارس عبادتهم هم: عشتر (Astar)، الذي هو تجسيد لكوكب فينوس (الزهرة)، والإلهين السفليين بحير Behèr، ومدر Medr الذيّن كانا يمثلان الأرض.

وتأتي أشكال العبادة اللفظية بـ "أقزيا بحير" الله أو الإله بحير، أو إله الأرض، هذا إلى جانب إله القمر "هوبس" howbas ، وآلهة أخرى كمحرم (إله الحرب والعرش)، ومن جهة أخرى كان الأكسوميين يقدمون القرابين لآلهتهم، وكانت الحيوانات المستأنسة تمثل غالبية تلك القرابين.

انتشار المسيحية في أكسوم:

يُرجع أغلب المؤرخين أن دخول المسيحية لأكسوم يعود إلى 'فرومنتيوس الشهير' الذي أصبح يدعى فيما بعد باسم المنير (كساته برهان) أو أبا سلامة، ووصف المؤرخ 'روفينوس' وصول 'فرومنتيوس' إلى إثيوبيا ورحيله إلى الغسكندرية ثم عودته إلى أكسوم وصفا تفصيليا وهذا خلال القرن الرابع ميلادي.

وتقول الروايات أن أول ملك أكسومس قام بتعليمه فرومنتيوس كان الملك "عيزانا" إبن "إيلي – عمدة"؛ لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف استطاع هذا الأخير التأثير على العائلة الملكية وادخال المسيحية في ظل تمسك ملوك الامبراطورية بديانتهم الوثنية.

وعليه يمكن ارجاع ذلك التغير الديني إلى أن بلاط أكسوم كان على صلات وطية مع القسطنطينية، وأن مبادلات تجارية وثقافية كبيرة كانت تجري بين البلدين، ويشير المؤرخ "أوزيب" في كتابه (حياة قسطنطين) إلى وجود إثيوبيين في القسطنطينية على عهد قسطنطين.

ورغم ذلك لم يُقْدِم عيزانا على التخلي عن ديانته التقليدية فجأة، واعتناق المسيحية خوفا على منصبه وإثارة شعبه؛ بل راح تدريجيا يعتنق الدين الجديد، وظهر ذلك في ما عثر عليه في النقوش التي جمعت بين الدين الجديد والإيمان بالدين القديم (بحير، مدر)، وتجنب أي ذكر لاسم المسيح أو لوحدة المسيح مع الله، أو الثالوث (الأب، الروح، القدس)، فعبارة رب السموات والأرض (أجزيا وسماي، ومدر) التي نطق بها لأول مرة في القرن 4م أول ملك مسيحي قد ظلت تستخدم إلى يومنا هذا.

ويُلاحَظ أنه لا الكتب الأجنبية ولا الروايات المحلية ذكرت التاريخ المحدد لدخول المسيحية؛ لكن بعض الروايات تقول أن المرة الثانية التي عاد فيها "فرومنتيوس" إلى أكسوم كانت عام 315م ومصادر أخرى تقول 333م، وأخرى تقول 343 م لكن يتفق الجميع على أنها دخلت في القرن الرابع الميلادي.

وبعد دخول المسيحية وازدياد عدد معتنقي الديانة الجديدة تكاثرت الرحلات إلى الأراضي المقدسة، وفي خطاب مرسل من القدس عام 386م كتبت واحدة اسمها "باولا" إلى صديقتها "مارسيلا" التي كانت تقطن في روما تقول: "وماذا نقول عن الأرمن ...هن

الهنود والإثيوبيين الذين يهرعون إلى هذا المكان (بيت المقدس) حيث يسفرون عن فضائل مثالية".

وكان انتشار المسيحية في مملكة أكسوم خلال القرنين 5 و6 أكثر نتيجة جهد رجال الكنيسة التي تصفهم النصوص التقليدية بأنهم (صآدقان)؛ أي عادلون أو "تصاتو-كدوسان" تسعة قديسين.

ويعود الفضل إلى أكسوم في إدخال المسيحية إلى عدة أماكن أخرى على غرار علوة (ألوديا) في جنوب النوبة، وهذا من خلال الحملات التي كان يقوم بها ملوك أكسوم نحو جنوب النوبة.

الكتابة واللغة:

أولى الحروف التي أُستعملت بأثيوبيا، والتي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد من اصل جنوبي عربي، وهي لغة تشبه اللهجات السامية بجنوب شبه الجزيرة العربية؛ لكن بمرور الوقت أصبح الناس يتكلمون باللغة الأكسومية، وهي تختلف عن القديمة لكنها مشتقة منها، ويبدا استعمالها في القرن 1م، وتتألف الأبجدية الأكسومية من حروف ساكنة جامدة، وهي تكتب من اليسار إلى اليمين بعد أن كانت العكس، ويطلق على اسم تلك اللغة بالجعزية Geez، وهي جزء من المجموعة الجنوبية لأسرة اللغات السامية.

نشأة الحضارة الأكسومية:

بدأت تظهر حضارة الأكسوميين قبل القرن الخامس من الميلاد، وقد قامت بتأثير من حضارة شبه الجزيرة العربية، وهي حضارة زراعية في الأساس، وازدهرت بعض الشيء خلال القرنين 5 و 4 قبل الميلاد؛ لكن اضمحلت بعد ذلك وبقيت حضارتها مختبئة، ولم تمت خصوصا في الجانب الديني حيث بقي الإله عستر يُعبد لدى سكانها إلى جانب بعض التقاليد المعمارية والزراعية، وبقيت على ذلك النحو إلى أن عادت إلى الوجود مرة أخرى مع القرن الأول للميلاد، ساعدتها في ذلك العوامل الاقتصادية، فقد كانت الزراعة وتربية الماشية هما عماد الحياة الاقتصادية.

وإلى جانب ذلك ازدهرت التجارة البحرية في البحر الأحمر خلال القرنين الأول والثاني من الميلاد، وهذا يعود إلى الانتشار الروماني في المنطقة الذي مهد له تطور الملاحة، وقد تحسنت كثيرا وسائل الملاحة، حيث استخدموا الرياح على أحسن وجه، وسجل سترابون أنه في زمن أغسطس كانت تخرج من موانئ أكسوم 120 سفينة أغلبها تتجار مع بلدان البحر الأبيض المتوسط والهند، وكانت أدوليس نقطة إلتقاء التجارة البحرية.

وعلى غرار التجارة الخارجية لعبت التجارة الداخلية عاملا مهما في تطور المملكة خصوصا تجارة العاج، وكانت أكسوم نقطة التجمع الكبرى لهذه المادة.

وبشكل عام نمت حضارة أكسوم في القرن الاول الميلادي، وإن تكن جذورها ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وهذه الحضارة جاءت نتاج لعملية نمو وتطور ساعدتها الأحوال الجغرافية والظروف التاريخية، ولا شك أن الحضارة الأكسومية هي قبل كل شيء حصيلة جهود شعب ما زالت هويته العرقية تكتشف إلى اليوم.

وتتقف العديد من المصادر التاريخية أن الملك "زوسكاليس" أو "زا هيكالي" هو أول ملوك المملكة في الفترة الميلادية، فقد كان هذا الأخير يسيطر على الساحل الإيريتري للبحر الأحمر، أما صحراء البجة فقد كانت واقعة تحت سيطرة "مروى" ومع مرور الوقت بدأت المملكة تتوسع حتى ذكرت المصادر السبئية أنه في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث قام كل من الملك "قدرا" وابنه "كانا شين" هجوما على اليمن واحتلوا بعض اراضيها، وكان ذلك بالتحديد في الفترة ما بين 183 و 213م، وهذا ما يشير إلى توسع أكسوم وخروجها عن نطاق القارة الإفريقية إلى التوسع نحو شبه الجزيرة العربية.

وبحلول عام 270م بلغت شهرة الدولة بلاد الفرس؛ إذ ورد في كتاب المؤرخ "ماني" (العقائد) أن أكسوم هي احدى أقوى أربع امبراطوريات في العالم.

الحرف والمهن في أكسوم:

كان أغلب الأكسوميين يمارسون الزراعة وتربية الماشية حيث كانوا يقيمون المصاطب (مزارع على منحدرات الجبال)، ويقيمون بريها بمياه النهيرات المتدفقة من الجبال، حيث يصوبونها صوب الحقول، كما كانوا يشيدون الخزانات الصغيرة لحفظ مياه الأمطار، ويحفرون قنوات الري، وتبين الوثائق أن القمح وبعض الحبوب الأخرى كانت تزرع، كما مارس سكان المنطقة زراعة الكروم.

وكانوا يربون أيضا قطعان كبيرة من الأبقار والضأن والأغنام إلى جانب الحمير والبغال، كما تعلم الأكسوميين صيد الفيلة وترويضها حيث كانت تستخدم في البلاط الملكي، وتبين من النقوش والآثار المادية أن طعامهم كان يتكون من فطائر القمح الرقيقة والخمر، والعسل واللحم، والزبد والزيوت النباتية.

النظام السياسي:

لقد كان تأسيس المملكة هو نواة لتأسيس امبراطورية فمن نهاية القرن الثاني وحتى بداية القرن الرابع الميلادي اشتركت أكسوم في الصراعات الحربية والدبلوماسية التي دارت بين دويلات جنوب شبه الجزيرة العربية، وعقب ذلك استولت أكسوم على الأقاليم

الواقعة بين هضبة تقري (تيغري)، ووادي النيل، وفي القرن الرابع الميلادي احتلوا مملكة مروى التي كادت تنتهي في ذلك الوقت، وبذلك تم تشييد مملكة تشمل الأراضي الزراعية الخصبة في الشمال الإثيوبي، والسودان، وجنوب شبه الجزيرة العربية.

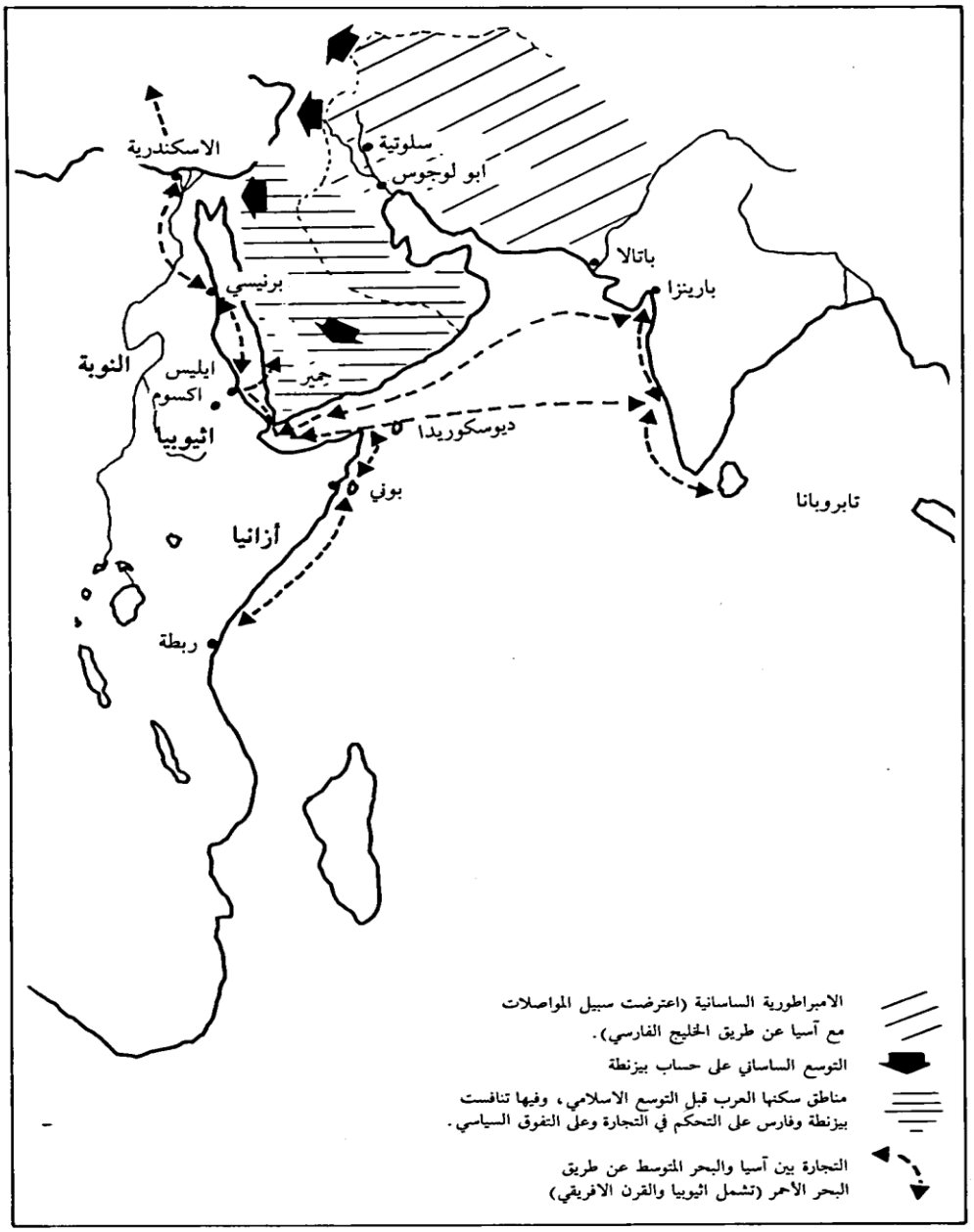

خريطة توضح توسع أكسوم

قائمة المراجع:

- محمّد عوض محمّد: **نهر النيل**، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962
- محمّد عوض محمّد: **الشعوب، والسلالات الإفريقية**، الدار القومية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965
- إلهام محمّد علي ذهني: **بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ إفريقيا الحديث**. ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2009.
- ظاهر جاسم، محمد: **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال**. المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،2002.
- مختار جمال: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، اليونيسكو، 1985.
- جين همفرس وثيلو ريهرين: انتاج الحديد في مملكة كوش، أ. لوهواسور و ب. وولف، 2014.

-. Battistini René : **Géographie de L'Afrique oriental : Kenya, Uganda et Tanzanie**. Centre de documentation universitaire, Paris, 1969

- **Bruce Williams** : The Kingdom of Kush in the 4th Cataract I-III Report on the Sites of Hosh el-Guruf and El-Widay, (African reports), vol 7, 2010, printed by expol, ul, brazeska 4, Poland, 2010.